

التجليات التراثية الإسلامية

من خلال كتاب "المُسْتَطَرَف في كلِّ فنٍّ مُسْتَطَرَف" للأبشيبي (ت852هـ)

Islamic heritage manifestations

Through the book "Al-Mostaraf in Every Must-Seek Art" by Al-Abshahi
(d.852 AH).

د.عثماني أم الخير/أستاذة محاضرة"أ" oumelkheiromani@gmail.com	تاريخ وسيط	كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية/جامعة: الجيلالي بونعامة-خميس مليانة-/الجزائر.
--	------------	--

الإرسال: 2021/01/13 القبول: 2021/04/17 النشر: 2021/05/14

ملخص: (عربية)

تنوعت المصادر التراثية بين المؤلفات والمخطوطات، وغيرها، كما اختلفت النصوص، والأشعار، والنثرات المختلفة، كان أهمها الطَّرَفَات والأمثال، والحكم، والتَّوَادِر، التي تعددت الكتب فيها، لكنها لم تُفَرِّ بدراسات تقييمية كافية؛ لاستجلاء ما في مضامينها من تداعيات تخدم الحاضر الذي كُتِبَتْ فيه، والمستقبل الذي جاء بعدها، على اعتبار أن تلك المضامين حقائق كانت واقعية استعملها أصحابها للتَّنْذِيرِ؛ لاعتبارات عدة .

وكتاب "المُسْتَطَرَف في كلِّ فنٍّ مُسْتَطَرَف" للأبشيبي (ت852هـ/1449م) ذو محتوى طريف ظاهرًا، لكنّه ذو أبعاد أخرى حكيمية تخدم مجالات عدة: الحكم، الوزارة، الأخلاق، الآداب العامة، الفنون، وغيرها؛ ما يستدعي ضرورة مقارنة ما جاء فيه، بما ذكره كتاب "البيان والتبيين"؛ للجاحظ، وكتاب "الأمثال والحكم"؛ للماوردي، وغيرهما، والذي هو مضمون عبارة عن برنامجٍ إصلاحي تحضيري للمجتمع الإسلامي، بدعوته إلى العودة إلى الله، وكتابه العزيز، وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وأتباع خُطى السلف الصالح؛ إذ لا تحضر بدون تفاعلٍ بين الحاكم والرعية، في إطار تشريعي واضح يحفظ التناصف والهيبة لكلا الطرفين.

كلمات مفتاحية: الأبشيبي؛ المستطرف؛ فنٍّ؛ مُسْتَطَرَف، العدل، الذمة.

Abstract: (English)

Heritage sources varied between works, manuscripts, and others. In it, and the future that followed, considering that these contents were realities used by the owners to train them; for several considerations.

The book "The Extremist in Every Arrogant Art" by Abhishey T 852 AH / 1449 AD has a seemingly funny content, but has other wise dimensions that serve several areas: governance, ministry, ethics, public morals, arts, and others; The statement and the

manifestation of the Almighty, and the book "Proverbs and wisdom" of Mawardi, and others, which is the content of a reform program for the Islamic community, calling him to return to Allah, his dear book, the Sunnah of His Messenger, peace be upon him, and follow the footsteps of the righteous predecessor; Interaction between the ruler and the parish, within a clear legislative framework that preserves the dragon Describe and prestige for both parties.

Key words: Apocheism; Extreme; art; Muster, justice, siblings.

مقدّمة:

يعدّ كتاب "المُسْتَظَرَف في كلّ فنٍّ مُسْتَظَرَف"، من أهمّ المؤلفات التّراثيّة الأدبيّة المتعدّدة المحتوى يستدعي ضرورة النّظر في مضامينه، بقراءة متأنّية لماضي وحاضر الأُمّة؛ لرسم خطوطها المستقبلية في كلّ المجالات، فما مدى خدمة محتوى هذا الكتاب لحاضر ومستقبل التّاريخ والحضارة الإسلاميّين؟.

أوّلًا، التعرّف بالأبشيبي:

الأبشيبي، بهاء الدّين أبو الفتح محمّد بن أحمد بن منصور المصري الشّافعي، والمعروف بالخطيب الإبشيبي المتوفّي بعد (850هـ/1447م) (البغدادى، إ، 1995، 196) ولد سنة (790هـ/1389م) في مديرية الغربية، بمكان اسمه "إبشونة" قضى أكثر أيامه في المحلّة الكبرى قرأ بها القرآن، ودرس شيئاً من الفقه والنّحو، وزار القاهرة مراراً، وذهب إلى الحجّ سنة (814هـ/1413م)، بعد ذلك استقرّ حيناً في القاهرة؛ تولّى الخطابة بعد وفاة والده، كما كان اشتغل بالأدب، توفيّ سنة (852هـ/1449م) (فروخ، ع، 1989، ج3، 848).

أ- منهجه ومضمون كتاب المُسْتَظَرَف: اهتمّ الأبشيبي بالكتابة التّراثيّة المتعدّدة الفنون، وأساليب التّقديم لبلوغ غاياتٍ محدّدة، فوصّف بأنّه كان أدبيّاً يُحسن التّحديث والإطراف بالأشعار والحكايات والحكم، ويعدّ كتاب "المُسْتَظَرَف من كلّ فنٍّ مُسْتَظَرَف" أبرز كتبه (فروخ، ع، 1989، ج3، 848).

وذكر في تقديمه له هدف تأليفه "أمّا بعد، فقد رأيتُ جماعة من ذوي الهمم جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم، وبسطوا مجلّدات في التّواريخ والنّوادر والأخبار والحكايات واللّطائف ورقائق الأشعار، وألّفوا فيها كتباً كثيرة تفرّد كلّ منها بفرائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة، فاستخرتُ الله تعالى، وجمعتُ من مجموعها هذا المجموع اللّطيف، وجعلته مشتملاً عل

كلّ فنّ ظريف، وسمّيته "المستطرف في كلّ فنّ مستظرف" (الأبشيبي، ش، 2009، 6)؛ ما يؤكّد أنّه ألف في نهج ألف سبقه إليه غيره من قبل، ولعلّ من بين المقصودين الجاحظ الذي ذكره في عدّة شواهد، وكذلك الرّمخشري، وغيرهما، ممّن ساستشهد بما ذكروه في بعض مصنّفاتهم.

ذكر الأبشيبي في كتابه بعض مصادره "واستدلّت فيه بآيات كثيرة من القرآن الكريم، وأحاديث صحيحة، من أحاديث النّبي الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصّالحين الأخيار، ونقلت فيه كثيرا، ممّا أودعه الرّمخشري، في كتابه "ربيع الأبرار"، وكثيرا ممّا نقله ابن عبد ربّه في كتابه العقد الفريد" (الأبشيبي، ش، 2009، 6)، ولم يحدّد هدفاً بعينه؛ بل ترك ذلك لكلّ مطّلع على مصنّفه هذا "ورجوت أن يجد مُطالعه فيه كلّ ما يقصد، ويريد، وجمعت فيه لطائف وطرائف عديدة، من منتخبات الكتب النّفيسة المفيدة" (الأبشيبي، ش، 2009، 6)، وتطرق الأبشيبي فيه إلى منهجه "...وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين باباً، من أحسن الفنّون" (الأبشيبي، ش، 2009، 5).

وأضاف "وضمّنته كلّ لطيفة، ونظّمته بكلّ طريفة، وقرنت الأصول فيه بالفصول، ورجوت أن يتيسّر لي ما رُمّته من الوصول، وجعلت أبوابه مقدّمة، وفصّلتها في مواضعها، مرتّبة منظّمة؛ ليقصد الطّالب إلى كلّ باب منها عند الاجتياح إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه ...، وهذه فهرسة الكتاب والله سبحانه المهوّن للصّعاب (الأبواب وما فيها) (الأبشيبي، ش، 2009، 6)، آخر الأبواب الباب الرابع والثمانون في فضل الصّلاة على النّبي -صلى الله عليه وسلّم-، وهو آخر الأبواب ختمها بالصّلاة على سيّد العباد، أرجو بذلك شفاعته -صلى الله عليه وسلّم- يوم المعاد (الأبشيبي، ش، 2009، 10).

ثانياً، التّجليات الحضاريّة:

ركّز الأبشيبي على دور العقل عند الإنسان في تفعيل السلوكات الإنسانيّة، وهذا الرّأي تحدّث عنه الفلاسفة، وغيره، بذكره لنوعين من العقل حسب الأداء (الغريزي والتّجريبي)، وربّما في ذلك مدعاة إلى أنّ التّجربة الحضاريّة ليس سببها العقل الغريزي وحده؛ بل التّجريبي؛ لأنّ الأوّل موجود عند الكلّ، بينما الثّاني، فهو ما يتمتّع به البعض فقط، وهو ما يجعلهم يقدّمون بفضله خلاصاً حضاريّة إبداعية قد تخرج عن المألوف أو تسايّره، وهي التي تقسّم الفئات البشريّة حسب نشاطات عقلها (زراعة، صناعة، تعليم...).

و خصّ الباب الثّاني، للعقل والدّكاء والحُكم وذمّه، وغير ذلك "واعلم أنّ العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزّيادة والنّقصان، وقسم يقبلهما، فأما الأوّل، فهو، العقل الغريزي المشترك

بين العقلاء، وأمّا الثّاني، فهو، العقل التّجريبي، وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التّجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال: "إنّ الشّيخ أكمل عقلاً، وأتمّ دراية، وإنّ صاحب التّجارب أكثر فهماً، وأرجح معرفة... وقد يخصّ الله تعالى بألفائه أليّة من يشاء من عبادته، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل، وزيادة معرفة تُخرجه عن حدّ الاكتساب، ويصير بها راجحاً على ذوي التّجارب والآداب" (الأبشيبي، ش، 2009، 24).

ويشير إلى السلوكات الإنسانيّة التي تنشأ تبعاً لنوع الفعل الذي أساسه العقل التّجريبي كمشكلة النّاس لزمانهم أو أزمان غيرهم، باتّخاذ القدوة منهم في المجال الأخلاقي والسلوكي"، ويُستدلّ على حصول كمال العقل في الرّجل بما يوجد منه، وما يصدر عنه، فإنّ العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإنّ المشاهدة من خصائص الأجسام، فأقول: "يُستدلّ على عقل الرّجل بأمر متعدّدة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق، وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته لا في إسداء صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه عاراً، ويؤرّثه سوء السّمعة، وقد قيل لبعض الحكماء: "بم يُعرف عقل الرّجل؟، فقال: "بقلة سقطة في الكلام، وكثرة إصابته فيه"، فقليل له: "فإنّ كان غائباً؟"، فقال: "بإحدى ثلاث: إمّا برسوله، و إمّا بكتابه، و إمّا بهديته، فإنّ رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نُطق لسانه، وهديته عنوان همّته، فيقدر ما يكون فيها من نُقص يحكم به على صاحبها..." (الأبشيبي، ش، 2009، 25، 26).

والكلام بما فيه من لفظ تحدّث عنه قبله مثل: الجاحظ؛ في كتابه "البيان والتّبيين"، ويستشهد بأقوال خلفاء، قال المنصور لولده: "خُذْ عَنِّي اثْنَتَيْنِ، لَا تَقُلْ مِنْ غَيْرِ تَفْكِيرٍ، وَلَا تَعْمَلْ بِغَيْرِ تَدْبِيرٍ"، وقال أردشير: "أربعة تحتاج إلى أربعة، الحسب إلى الأدب، والسّرور إلى الأمن، والقراية إلى المودة، والعقل إلى التّجربة"، وقال كسرى أنوشروان: "أربعة تؤدّي إلى أربعة، العقل إلى الرّياسة، والرّأي إلى السّياسة، والعلم إلى التّصدير، والحلم إلى التّوقير"، وقيل: "ثلاثة هنّ رأس العقل، مداراة النّاس، والإقتصاد في المعيشة، والتّحبّب إلى النّاس" (الأبشيبي، ش، 2009، 25، 26).

وحفظ لنا التّراث وصيّة المنصور لولده محمّد المهدي: "يا بَنِي، لَا تُبْرِمْ أَمْرًا، حَتَّى تُفَكِّرَ فِيهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْعَاقِلِ مَرَاتَهُ، تُرِيهِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا التَّقْوَى، وَالسُّلْطَانُ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الطَّاعَةُ، وَالرَّعِيَّةُ لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْعَدْلُ، وَأَوَّلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ، وَأَنْقَضَ النَّاسَ عَدْلًا، مَنْ ظَلَمَ مِنْ هُوَ دُونَهُ" (الدّينوري، أ، 1959، 384).

وأما ذمّ الحُمق، فالحمافة مأخوذة من حَمَقْتُ السّوق، إذا كَسَدَتْ، فكأنّه كاسد العقل والرّأي، فلا يشاور، ولا يُلْتَفَتُ إليه في أمر من الأمور، والحُمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة، وهو داءٌ دواؤه الموت...، ويُستدلّ على صفة الأحمق...، ومَنْ قَلَّ عقله، فهو، أحمق...، و أمّا صفته من حيث

الأفعال، فتزك نظره في العواقب، وثقته بمن لا يعرفه، والعجب، وكثرة الكلام، وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات، والخلو من العلم، والعجلة، والخفة، والسفه، والظلم، والغفلة، والسهو، والخيلاء إن استغنى بطر، وإن افتقر قنطر، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألج، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يُعرف العاقل من الأحمق (الأبشيبي، ش، 2009، 28، 29).

والظاهر أنّ الأبشيبي يشير بطريقة أو بأخرى إلى التوسط في العيش، بإمعان العقل في كل شيء، مع التأكيد على ضرورة الرجوع إلى كتاب الله، في ما ضمنه الباب الثالث، في القرآن، وفضله، وحرمة، وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم، مستشهداً بقول لعلي-رضي الله عنه-: "لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا فِقْهَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا" (الأبشيبي، ش، 2009، 31).

- التعليم:

خصّ الأبشيبي الباب الرابع للعلم والأدب، وفضل العالم والمتعلم، بإيراده لعدة أقوال، قال علي-كرم الله وجهه-: "مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ثَلَاثُ نَزَلَاتٍ: قِيلَ لَهُ: تَعْلِّمْ غَيْرَهُ، وَلِيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسَرِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ"، وقيل: "مؤدّب نفسه، ومعلّمها أحق بالإجلال من مؤدّب الناس ومعلّمهم"، وقيل: "من لم يتعلّم في صغره لم يتقدّم في كبره"، وقال لقمان: "جالس العلماء، وزاحمهم بركبتك، فإن الله يُحيي القلوب بنور الحكمة كما يُحيي الأرض بماء السماء" (الأبشيبي، ش، 2009، 35 وما بعدها)، وفي كلّ تلك الأقوال تنبيهٌ إلى فضل المتعلّم، ثقافياً وسلوكياً.

و لولا إدراك الخلفاء العباسيين لفضل العلم والتعلّم؛ لمَا اهتمّوا بتعليم أولادهم، ولمَا عقدوا مجالساً للعلم، وحضروها، ومن جميل ما ذُكر، تلك الوصية الهامة التي عهد بها الرشيد إلى مؤدّب ولده "محمّد الأمين" التي جمعت بين الثقافة والسلوك إلى مؤدّب، ونصّها: "يا أحمر، إنّ أمير المؤمنين، قد دفع إليك مُهجة نفسه، وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطاً، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، إقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصّرّه مواقع الكلام، وبدّنه، وامنعه من الضحك، إلّا في أوقاته، وحُذّه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، و رفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تتمرّن بك ساعة، إلّا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إيّاها، من غير أن تخرق به، فتميت ذهنه، ولا تُعن في مساحته، فيستحلي الفراغ، ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنّ أباهما، فعليك بالسّدة والغلظة (المسعودي، ع، دط، ج3، 254).

- تفعيل الحِكم والأمثال في الجانب الحضاري: أورد الإبيشيبي في كتابه عدّة حِكم وأمثال، وهذا دليل كافٍ على تداولها من زمان إلى آخر، حتّى وصلت فترة حياته؛ ما يدلّ على وقّعها في المجتمع وسلوكيّاته، فاهتمّ الأبشيبي بجمع الأمثال؛ لأهميّتها في التّواصل الحضاري بين الأجيال، حتّى أنّنا نجدها في مضامين الأشعار، ويتّفق أغلبها مع مقاصد السّنّة، فكان الباب الخامس، في الآداب والحكم، وما أشبه ذلك؛ إذ اجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات: "لا تُحَمِّلْ بطنك ما لا يطيق، ولا تَعْمَلْ عملاً لا ينفَعُكَ، ولا تغتَرّ بامرأة، ولا تثقُ بمال..." (الأبشيبي، ش، 2009، 46).

وعظّم أهميّة الأمثال في الباب السادس، في الأمثال السّائرة: "اعلم أنّ الأمثال من أشرف ما وصل به اللّبيب خطابه، و حلّ بجواهره كتابه، وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها" (الأبشيبي، ش، 2009، 47)، و أمثلة كثيرة قدّمها، ومن الأمثال في الحديث النبوي كذلك، وهذا يتّفق مع ما ذكره "الماوردي"، في تقديم كتابه "الأمثال والحكم".... "وقد ضمّنتُ كتابي هذا من سنة رسول الله-صلّى الله عليه وسلّم- أحاديث وجيزة الألفاظ، واضحة المعاني، ومن أمثال الحكماء، وأقوال السّعراء ما كان عذّب البديهة، سائر الذّكر، وجعلتُ ما تضمّنّه من السّنّة ثلاثمائة حديث، ومن الحكمة ثلاثمائة فصل، ومن الشّعْر ثلاثمائة بيت، وقسمتُ ذلك عشرة فصول (الماوردي، علي، 1999م، 49).

ونفسه مع ذهب إليه صاحب كتاب "جمهرة الأمثال": "...وفارط منته في مثلي ضربه، ومثال نصبه؛ لينتهي إليه العارف، فبرّشُد...، ودلّ على فضيلة ذلك في مُحكم بيانه...، فقال جلّ ثناؤه: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ" (سورة الحج، الآية: 73)، ثمّ إنّ ما رأيتُ حاجة الشّريف إلى شيء من أدب اللّسان بعد سلامته من اللّحن كحاجته إلى الشّاهد، والمثّل، والشّدّة، والكلمة السّائرة، فإنّ ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويكسبه قبُولاً، ويجعل له قدرًا في النّفوس، وحلاوة في الصّدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعدادها لأوقات المذاكرة، والاستظهار به، وأوان المجادلة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلّيات المفاولة، ولمّا عرفتُ العرب أنّ الأمثال تتصرّف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جلّ أساليب القول أرجوها في أقواها من الألفاظ؛ ليخفّ استعمالها، ويسهّل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبله وأشرفه وأفضله؛ لقلة ألفاظها وكثرة معانيها، ويسير مؤنّتها على المتكلّم،...، وجسيم عائدها، ومن عجائب أنّها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، والأمثال أيضاً نوع من العلم، منفرد بنفسه لا يقدر على التّصرّف فيه، إلّا من اجتهد في طلبه، حتّى أخكمه، وبالع في التماسه، حتّى أتقنه...، وإنّما يحتاج الرّجل في معرفتها مع العلم بالغريب إلى الوقوف على أصولها والإحاطة بأحاديثها (العسكري، ح، 1988م، 9، 10).

وذهب الزّمخشري نفس المذهب مع العسكري بقوله، في مقدّمة كتابه "المستقصى في أمثال العرب": "فتدبّرتُ شُعَبَ الفنّ الذي أنا كائنٌ بصده، وقائم بإزائه، فصادتُ الشُّعْبَةَ التي هي أمثال العرب، لَيَقَّةً بالميل في صفو الاعتناء بها أو الكدح وعلالته إيّاها، لما آنستُ من تناهي فاقة الأفاضل عن آخرهم إلى استكشاف غوامضها، والغوص على مشكلاتها، ولأسيما من انتدب منهم لتدريس قوانين العربيّة، وإقراء الكتب الكبار...، وكَمّ يتلّقاك في هذا العصر الذي قرع فيه فناء الأدب..." (الزّمخشري، ج2، 1987م، أ، ب).

و تحدّث الأبشيبي عن أمثال العرب منها: "حافظ على الصّدق، ولو في الحريق"، "آفة المروءة خلف الوعد"، "طاعةُ النّساء ندامة"، "ظاهر العتاب خير من باطن الحقد"...، "كثرة العتاب توجب البغضاء"، "يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة"، "معاتبه الإخوان خيرٌ من فُقدهم"، "النّفس مولعة بحبّ العاجل"، "لا يُلدغ المؤمن من الجحر مرتين" (الأبشيبي، ش، 2009، 49، 50).

أمّا الفصل الثّالث، فأورد فيه أمثال العامّة، والمؤلّدين منها: "التسلّط على الممالك دناءة"، "الأسواق موأندُ الله في أرضه"، "النّاس أتباعٌ لمن غلب"، "الغائب حُجَّتُه معه"، "والعبد عبد وإنّ ملك الدّر"، "تزاوروا، ولا تجاوروا"، "تعاشروا كالإخوان، وتعاملوا كالأجانب"، "سفير السّوء يُفسد ذات البين"، "من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً" (الأبشيبي، ش، 2009، 51).

كما كان الفصل الرّابع، في الأمثال من الشّعر المنظوم مرتّبة على حروف المعجم، حرف الدّالّ مثلاً: "ذو عقلٍ يشقى في التّعيم بعقله وأخو الجهالة في الشّقاوة ينعم"؛ حرف القاف: "قد يجمع المال غير آكله، ويأكل المال غير من جمعه"، أمّا الفصل الخامس، ففي الأمثال السّائرة بين الرّجال والنّساء مرتّبة على حروف المعجم، مثلاً في حرف الجيم: "جور القطّ و لاعدلّ الفأر"؛ حرف الدّالّ: "دار الألم خرابٌ ولو بعد حين"، "وكُلُّ من تكلم بالحقّ كسروا رأسه"؛ حرف السّين: "سَلُ المجرّب، ولا تنس الطّبيب"؛ حرف الصّاد: "صام سنة، و فطر على بصلة"؛ حرف الضّاد: "ضربُ الحبيب كأكَل الزّبيب"، "ضرب، وبكى سبق، واشتكى"؛ حرف الكاف: "كُلُّ من عودته بأكلك كلّما نظرتك جاع"؛ حرف الميم: "محبّة بلا حبة ما تساوي حبة"؛ حرف الهاء: "هانت الزّلاييّة، حتّى أكلها بنو وائل"، ومن أمثال النّساء: "جارة بجارة والعداوة خسارة"، "خلّت زوجها مكروب، وراحت تشوف المصلوب" (الأبشيبي، ش، 2009، 51 وما بعدها)، وكلّ هذه الأمثال تنقل واقعاً يختلف من طبقة إلى طبقة إجتماعيّة في المجتمعات.

- أهميّة الفصاحة في التّفاعل الحضاري:

اهتمّ بدور الفصاحة واللّسان في الحفاظ على الهوية والانتصار للعربيّة، فكان الباب السّابع، في البيان والبلاغة والفصاحة، وذُكر الفصحاء من الرّجال والنّساء، وفيه فصول: "أما البيان، فقال الجاحظ: "البيان اسم جامع لكلّ ما كشف لك من المعنى، أمّا البلاغة قيل: أنّ معاوية سأل عمرو بن العاص: "من أبلغ النّاس، فقال: "أقلّهم لفظاً، و أسهلهم معنًى، و أحسنهم بديهة"، و قال أبو عبد الله وزير المهدي: "البلاغة ما فهمته العامّة، و رضيت به الخاصّة"، وقال البحتري: "خير الكلام ما قلّ وجلّ، و دلّ، ولم يُملّ"، وقال الثّعالب: "البليغ من يحوّل الكلام على حسب الأمالي، ويخبط الألفاظ على قدر المعاني، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكراً"، وقال الإمام فخر الدّين الرّازي: "إنّما بلوغ الرّجل بعبارة كُنْه ما في قلبه، مع الاحتراز عن الإيجاز المُخلّ، والتّطويل المُملّ" (الأبشيبي، ش، 2009، 69)، وأيّاً كانت التعريفات للبلاغة، فيبقى مدراها الإِفْهَام، كما ذكر الجاحظ (الجاحظ، ع، ج 1، 2009م، 35).

ويتفق ذلك مع قول الإمام الرّازي في الفصاحة: "اعلم أنّ الفصاحة خلوص الكلام من التّعقيد، وأصلها من قولهم: "أفصحُ للبن؛ إذا أُخذت منه الرّغوة، وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة؛ بل يستعملونها استعمال الشّيئين المترادفين، على معنى واحد، لا في تسوية الحكم بينهما، والذي أراه في ذلك أنّ الفصيح هو اللفظ الحسّن المألوف في الاستعمال، بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً" (الأبشيبي، ش، 2009، 69).

وفي الفصل الثّالث، ذكر الفصحاء من الرّجال، فلمّا أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أئته الوفود، فإذا فهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السنّ، وقد أراد أن يتكلّم، فقال: "ليتكلم من هو أسنُّ منك، فإنّه أحقّ بالكلام منك"، فقال: "يا أمير المؤمنين، لو كان القول كما يقول؛ لكان في مجلسك هذا من هو أحقّ به منك"، قال: "صدقت، فتكلّم..." (الأبشيبي، ش، 2009، 77)، ولا أدلّ على أهميّة الفصاحة وجّه الخلفاء العباسيون أولادهم لتعلّم الفصاحة، فقد أسند عن إسماعيل بن أبي محمّد اليزيدي قال: "كان أبي يكلمّ الأميين والمأمون بكلام يتفصّحان به، ويقول: "كان أولاد الخلفاء من بني أميّة يُخرج بهم إلى البدو، حتّى يتفصّحوا، وأنتم أولى بالفصاحة منهم" (السّيوطي، ج، 2005م، 235).

ولم يغفل عن ذكر الفصيحات من النّساء والخُطَب والشّعْر والشّعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد (الأبشيبي، ش، 2009، 87 ومابعد). ولعلّ ذلك ما عبّر عنه أحد المستشرقين "إنّ الكلمات التي ينطق بها النّاس تشير إلى خبرة مشتركة، وتُستخدم هذه الكلمات في شرح وقائع أو أفكار أو أحداث قابلة للنّقل؛ لأنّها تشير إلى مخزون من المعرفة، بهذا العالم يشترك

فيه آخرون، وتعكس الكلمات أيضًا مواقف كُتّابها ومعتقداتها ووجهات نظرهم التي يشاركون فيها آخرون تضطلع اللّغة في الحالتين بالتعبير عن واقع ثقافي (كرامش، 2010م، 15).

- باب التمسك بالله والشورى للحضارة:

ركّز الأبشيهي على أهميّة العودة إلى الدّين الإسلامي في التّوكل على الله تعالى، والرّضا بما قسم والقناعة، وذمّ الحرّص والطّمع، وما أشبه ذلك (الأبشيهي، ش، 2009، 107 وما بعدها).، شارحًا دور المشورة والنّصيحة والتّجارب، والنّظر في العواقب قال المنصور لولده: "خُذ عني اثنتين، لا تَقُلْ في غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير"، وقال أعرابي: "لا مَالْ أَوْفَر من العقل، ولا فقْر أَعْم من الجهل، ولا ظُهر أقوى من المشورة" (الأبشيهي، ش، 2009، 120).

كما يبدو أنّ الأبشيهي متأثرًا، بما كان عند الفرس واليونان، فذكر ما كان من جرّاء تفعيلهم للاستشارة" وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه، وإنّما يستشيرون الواحد منهم، من غير أن يعلم الآخر به؛ لمعانٍ شتّى منها؛ لئلا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرّأي؛ لأنّ من طباع المشتركين في الأمر التّنافس والطّعن من بعضهم في بعض، وربّما سبق أحدهم بالرّأي الصّواب، فحسدوه، وعارضوه، وفي اجتماعهم أيضًا للمشورة تعريض السّرّ للإذاعة، فإذا كان كذلك، وأذيع السّرّ لم يقدّر الملك على مقابلة من أذاعه بالإيهام، فإنّ عاقب الكلّ عاقبهم بذنب واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له (الأبشيهي، ش، 2009، 121).

وذكر عن الخليفة المنصور أنّه كان صدّر من عمّه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور، لا تحتملها حراسة الخلافة، ولا تتجاوز عنها سياسة الملّك، فحبسه عنده، ثمّ بلغه عن ابن عمّه عيسى بن موسى بن علي وكان واليًا على الكوفة؛ ما أفسد عقيدته فيه، و أوحشه منه، وصرف وجهه ميله إليه عنه، فتألّم المنصور من ذلك، وساء نومه، وتأزّق جفنه، وقلّ أمنه، وتزايد خوفه، وحزنه، فأدّته فكرته إلى أمرٍ دبره، وكتبه عن جميع حاشيته، وستره، واستحضر ابن عمّه عيسى بن موسى، وأجراه على عادة إكرامه، ثمّ أخرج من كان بحضرته، وأقبل على عيسى، وقال: "يا ابن العمّ. إنّني مُطْلِعُكَ على أمرٍ لا أجِدُ غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعدًا لي على حَمْلِ ثِقَلِهِ، فهل أنت في موضع ظنّي بك؟" (الأبشيهي، ش، 2009، 123).

- الوصايا والصّمت:

واهتمّ الأبشيهي بالبناء الاجتماعي الأخلاقي، فتحدّث عن الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك: وبعدها تحدّث عن فائدة الصّمت، وصوّن اللّسان والنّهي عن الغيبة،

والسعي بالتَّيممة، ومدح العزلة، وذمَّ الشَّهرة، فقال الشَّافعي رضيَّ الله عنه: "إذا أراد أحدكم الكلام، فعليه أن يفكّر في كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شكَّ لم يتكلّم، حتّى تظْهر"، ثمّ تحدّث عن تحريم السَّعاية بالتَّيممة (الأبشيبي، ش، 2009، 133 وما بعدها).

و عرّج بعدها للحديث عن المُلْك والسُّلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسُّلطان على الرّعيّة، وما يجب لهم عليه، بإيراد ما أثر عن البعض؛ إذ قال الحجّاج: "سلطان تخافه الرّعيّة خيرٌ من سلطانٍ يخافها"، وقال أردشير لابنه: "يابنيّ، المُلْك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أسّ، والملك حارس، ومن لم يكن له أسّ، فمهدوم، ومن لم يكن له حارس فضائع" (الأبشيبي، ش، 2009، 142).

و كان نجاح سياسة الخليفتين المنصور، والمهدي، مرتبط بتطبيق العدل؛ فقال المنصور للمهدي: "يا أبا عبد الله... ولا تُعَمَّر بمثل العدل، ولا تدوم نعمة السُّلطان، وطاعته، إلّا بالمال، ولا تُقدّم في الحياطة بمثل نقل الأخبار، وأقدر النَّاس على العفو أقدرهم على العقوبة، وأعجز النَّاس من ظلم من هو دونه"، قال الخليفة أبوجعفر لوليّ عهده المهدي: "إنّي قد هيأت لك شيئاً تُرضي به الخلق، ولا تغرم من مالك شيئاً، فإذا أنا متُّ، فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التي سمّيتها المظالم والنّظر في المظالم قديم، كان الفرس يرون ذلك من قواعد المُلْك، وقوانين العدل الذي لا يعمّ الصّلاح، إلّا بمراعاته، ولا يتمّ التّناصف إلّا بمباشرة، وكانوا ينتصبون لذلك بأنفسهم في أيّام معلومة، لا يُمنع عنهم من يقصدهم فيها من ذوي الحاجات، وأرباب الضّرورات، وسبب تمسّكهم بذلك أنّ أصل قيام دولتهم ردّ المظالم (التّوري، ش، ج 6، دط، 266).

ويظهر مدى تأثّر العرب بملوك الفرس، فقول: "من أخلاق الملوك: حبّ التّفرد، فكان أردشير إذا وضع التّاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريجان، وإذا لبس حلّة لم يُر على أحد مثلها، إذا تختم بخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله"، وكان سعيد بن العاص بمكة، إذا اعتَم لم يُعْتَم أحد بمثل عمامته مادامت على رأسه، وكان الحجّاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها، وكان عبد الملك بن مروان إذا لبس الخفّ الأصفر لم يلبس أحد مثله، حتّى ينزعه، وقيل: "من حقّ المُلْك أن يفحص عن أسرار الرّعيّة فحَصَ المرضعة عن ابنه" (الأبشيبي، ش، 2009، 143).

أمّا فيما يجب على من صحب السُّلطان، والتّحذير من صحبته، فأما صحبة السُّلطان، فقد قال ابن عباس- رضي الله عنهما- قال لي أبي: "يا بنيّ، إنّي أرى أمير المؤمنين يستخليك، ويستشيرك، ويقدمك على الأكبر من أصحاب محمّد- صلى الله عليه وسلّم-، وإنّي أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشينّ له سرّاً، ولا تجرينّ عليه كذباً، ولا تغتابن عنده أحدًا" (الأبشيبي، ش، 2009، 145).

- صحبة الحكّام والوزراء:

ذكر الأبشيهي عدّة أقوال لبعض ملوك الفرس بزرجمهر: "إذا خدمتَ ملكًا من الملوك، فلا تطعه في معصية خالك، فإنَّ إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه"، وقالوا: "علم السّلطان، وكأنّك تتعلّم منه، و أشرّ عليه، وكأنّك تستشير، وإذا أحلك السّلطان من نفسه، بحيث يسمع منك، ويثق بك، فأياك والدّخول بينه وبين بطانته، فإنّك لا تدري متى يتغيّر منك، فيكونوا عونًا عليك، وإياك أن تُعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه، ويدخل مع الملك في ثيابه فعل"، وقال يحيى بن خالد: "إذا صحبتَ السّلطان، فدأره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الرّوج الأحق"، وأما ماجاء في التّحذير من صحبة السّلطان، فقد اتّفقت الحكماء العرب والعجم على التّبي عن صحبة السّلطان" (الأبشيهي، ش، 2009، 146، 147).

أما في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم، وأوّل ما يظهر نبيل السّلطان، وقوّة تميّزه، وجودة عقله في انتخاب الوزراء، واستنقاء الجلساء، ومحادثة العقلاء، فهذه خلال تدلّك على كماله، وبهذه خلال يجمل في الخلق ذكره، وترسّخ في التّفوس عظمته، والمرء موسومٌ بقرينه، وكان يقال: "حلية الملوك وزينتهم وزرأهم... فلا يصلح السّلطان، إلّا بالوزراء والأعوان" (الأبشيهي، ش، 2009، 148).

ولما كانت أمور المملكة إلى الوزراء، وأزّمة الملوك في أكفّ الوزراء سبق فهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: "لا تغترّ بمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبّك الوزير فنّم، ولا تخش الأمير، ومثل السّلطان كالدار والوزير بايها، فمن أتى الدّار من بايها ولج، ومن أتاها من غير بايها انزعج، وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من البصر، فكما أنّ من لم ينظر في المرأة لا يرى محاسن وجهه وعبوبه، كذلك السّلطان إذا لم يكن له وزير: "لا يعلم محاسن دولته وعبوبها، ومن شروط الوزير: أن يكون كثير الرّحمة للخلق، رؤوفًا بهم، واعلم أنّه ليس للوزير أن يكتّم عن السّلطان نصيحة، وإن استقلّها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرّأس، وكما أنّ المرأة لا تترك وجهها إلّا بصفاء جوهرها، وجودة صقلها، ونقاها من الصّد! كذلك السّلطان لا يكمل أمره إلّا بجودة عقل الوزير، وصحّة فهمه، ونقاء قلبه" (الأبشيهي، ش، 2009، 149).

وكان الوزير يعقوب بن داوود (ابن العماد الحنبلي، ش، ج 1، 1989، ص 261)، ويعظ المهدي في تعاطيه شرب التّبذ بين يديه وكثرة الغناء، ويلومه على ذلك، ويقول: "ما على هذا استوزرتي، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصّلوات الخمس في المسجد الحرام يُشرب عندك التّبذ، ويُسمّع السّماع بين يديك" (بن يديك) (بن كثير الدّمشقي، ع، ج 5، دط، 526).

- دور الحجاب والكتّاب:

وفي ذكر الحجاب والولاية، وما فيهما من الغرر والخطر، فقد قيل: "لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب"، وقيل: "إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم (الأبشيبي، ش، 2009، 150) (البهيقي، إ، ج 1، دط، 151)، ويتفق مع ما ذكره الجاحظ: "إن الحاجب أحد وجهي الملك، يعتبر عليه برأفته، ويلحقه ما كان في غلظته، وفظاظته، فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة، معروفاً بالرفاة، مألوفاً منه البر، والرحمة، وليكن جميل الهيئة حسن البسطة، ذا قصد في نيته، وصالح أفعاله، ومُره، فليضع الناس على مراتبهم، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم، وليعط كلاً بقسطه من وجهه، ويستعطف قلوب الجميع إليه، حتى لا يغشى الباب أحد، وهو يخاف، أن يقصر به عن مرتبته، ولا أن يمنع أحداً مرتبته، وليضع كلاً عندك على منزلته، وتعهده، فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته، وتزيين أمره" (الجاحظ، ع، 2004، 571).

وكان خالد بن عبد الله القسري لحاجبه: "إذا أخذت مجلسي، فلا تحجب عني أحداً، فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطالع عليه أحد أو ربة يخاف منها أن تظهر أو بخل يكره معه للرعية، وأكف لهم عن الظلم من سهولتهم"، وقيل لبعض الحكماء: "ما الجرح الذي لا يندمل؟" قال: "حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يردّه بغير قضائها" (الأبشيبي، ش، 2009، 150)، وأثر أقوال عن بعض خلفاء الدولة العباسية الأوائل، فيما أصدره من أوامرٍ لحجبتهم، مما يخصّ حُسن معاملاتهم مع الرعية؛ إذ قال موسى الهادي لحاجبه: "لا تحجب الناس عني، فإن ذلك يزيل التزكية، ولا تلق إليّ أمراً إذا كشفته وجدته باطلاً، فإن ذلك يونغ المملكة، وبنفس السيرة كان الخليفة هارون الرشيد الذي عهد إلى حاجبه أن لا يحبس عنه كتاب أحد قُرب، أو بُعد" (بن قتيبة، ع، ج 1، 1999، 219)؛ (الجاحظ، ع، 2008، 567).

ولكن ابن خلدون له نظرتة الخاصة إلى وضع الدولة مع الحجاب "إذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية، كان صاحبها على حال الغضاضة والبداءة والقرب من الناس وسهولة الإذن، فإذا رسخ عزه، وصار إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونهم، لما يكثر حينئذ بحاشيته، فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع، ويتخذ الإذن باباه على من لا يأمنه من أوليائه، وأهل دولته، ويتخذ حاجبا له عن الناس يقيمه باباه لهذه الوظيفة" (ابن خلدون، ع، 1989، 291).

وتحدّث الأبشيبي عن القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم، وما يتعلّق بالدّيون، وذكر القصاص والمتصوّفة: وفيه فصول، وفي القضاء، وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم، وأورد لنا عدّة أمثلة تقدّم المأمون بين يدي القاضي "يحيى بن أكثم" مع رجل ادّعى عليه بثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلىّ يجلس فيه، فقال له: "...لا تأخذ على خصمك شرف المجلس"، ولم

يكن للرجل بينة، فأراد أن يحلف المأمون، فدفَع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار، وقال: "والله ما دفعتُ لك هذا المال، إلا خشية أن تقول العامة: "إني تناولتك من جهة القدرة"، ثم أمر ليحي بـمال، وأجزل عطاءه(الأبشيبي، ش، 2009، 157، 158)

أشاد الأبشيبي بقيمة العدل، واستشهد بقول "عدل السلطان أنفع من صب الزمان"، وقيل: "إذا رغب السلطان عن العدل رغبَت الرعية من طاعته"، وكتب بعض عمال الخليفة عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- يشكو إليه من خراب مدينته، ويسأله مالا يرممها به، فكتب إليه عمر: "قد فهمتُ كتابك، فإذا قرأت كتابي، فخصن مدينتك بالعدل، و تق طرقها من الظلم، فإنه مرممها والسلام"(الأبشيبي، ش، 2009، 163).

وانتهى الأبشيبي إلى قوله: "ولو تتبعت ما جاء في العدل والإنصاف، وفضل الإمام؛ لألفت في ذلك مجموعاً جامعاً لهذا المعنى، ولكن اقتصرْتُ على ما ذكرته مخافة أن يملَّه الناظر، ويسأله السامع..."(الأبشيبي، ش، 2009، 157)، مع الإشارة إلى بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وسيرة السلطان في استجباء الخراج، وأحكام أهل الذمة:فيه فصلان:

وفي سيرة السلطان، في استجباء الخراج، والإنفاق من بيت المال، وسيرة العمال قال جعفر بن يحيى: "الخراج عماد الملوك، وما استعزوا بمثل العدل، وما استندروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد تعطيل الأرضين، وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور، ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج، حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه من الجوع، فهو إن شبع من ناحية، فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم ممّا دفع عن نفسه من ألم الجوع، ومثل من كلف الرعية على نفسه من الضعف والوجع بتراب أساس بيته، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها، فتحرب الأرض، ويهرب المزارعون، فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان"(الأبشيبي، ش، 2009، ص 178 وما بعدها).

أما عن أحكام أهل الذمة، فأورد الأبشيبي أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى، ولم يستعملهم، وأذلهم، وأبعدهم، وخالف بين زيمهم وزيم المسلمين، وقرب منه أهل الحق، وأبعد أهل الباطل، فأحيا الله به الحق، وأمات به الباطل، فهو يُذكر بذلك، وقال عمر بن الخطاب-رضي الله عنه: "لا تستعملوا اليهود والنصارى، فإنهم أهل رشا في دينهم، ولا يحل في دين الله الرشا"، ولما استقدم عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- أبا موسى الأشعري -رضي الله عنه(من البصرة، وكان عاملاً عليها للحساب دخل على عمر؛ وهو في المسجد، فاستأذن لكتابته، وكان

نصرانيًا، فقال عمر: "قاتلك الله، وضرب بيده على فخذه، ولَيْتَ ذَمِيًّا في المسلمين، أما سمعتَ الله تعالى يقول: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" (سورة المائدة، الآية: 5)، وهذا كلُّه إقصاء لأهل الذِّمَّة من الخدمة (الأبشيبي، ش، 2009، 179).

وأضاف مثلاً آخر، "وكتب بعض العمَّال إلى عمر رضي الله عنه: "إِنَّ العدو قد كثُر، وإنَّ الجزية قد كثرت أفندستعين بالأعاجم؟"، فكتب إليهم: "إِنَّهم أعداء الله، وإِنَّهم غششة، فأنزلوهم، حيث أنزلهم الله" (الأبشيبي، ش، 2009، 179)، تبعاً لمذهبه الشَّافعي، أورد لنا ما قاله أصحاب الشَّافعي: "ويلزمهم أن يتميَّزوا في اللباس عن المسلمين، وأن يلبسوا قلانس يميَّزونها عن قلانس المسلمين بالحُمر، ويشدُّوا الزَّنانير على أوساطهم، ويكون لهم في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحَمَّام، وليس لهم أن يلبسوا العمام، ولا الطَّيلسانات، وأمَّا المرأة، فإنَّها تشدُّ الزَّنَّار تحت الإزار، وقيل: فوق الإزار، وهو الأوَّل، ويكون في عُنُقها خاتم تدخل به الحَمَّام، ويكون أحد حُفَّيها أسود، والآخر أحمر.... وإن امتنعوا من أداء الجزية، والتزام أحكام أهل المِلَّة انتقض عهدهم..." (الأبشيبي، ش، 2009، 180).

وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء، فمنهم من قال: "إنَّها مقدَّرة الأقل، والأكثر على ما كتب به عمر -رضي الله عنه- إلى عثمان بن جنيف، بالكوفة، فوضع على ما بلغني ثمانية وأربعين درهماً، وعلى من دونه أربعة وعشرين درهماً، وعلى من دونه اثني عشر درهماً، وذلك بمحض من الصَّحابة -رضي الله عنهم- أجمعين، ولم يخالفه أحد، وكان الصَّرف اثنا عشر دينار..." (الأبشيبي، ش، 2009، 180)، ثمَّ رجع للحديث عن الآداب في حسن المعاشرة والمودَّة والأخوة والزَّيَّارة، وما أشبه ذلك: "اعلم أنَّ المودَّة والأخوة والزَّيَّارة سبب التَّألف والتَّألف سبب القوَّة، والقوَّة سبب التَّقوى، والتَّقوى حصن منيع، وركن شديد بها يمنع الضَّيْم، وتُنال الرِّغائب، وتنجح المقاصد (الأبشيبي، ش، 2009، 191).

وكلَّ ذاك الكلام يتَّفَق مع ما ذكر صاحب كتاب الآداب: "...وبعد، فإنَّ أَلطف الكلام موقعاً، وأشرفه موضعاً كلمة حكمة يقتدي بها الإنسان بسناها، فيهندي، ويتَّبَع هداها، فيرتدع، ومثَلٌ سائر يُغني بإيراده في المحافل عن ألفاظ يؤلِّفها، ومعان يتكلَّفها، وينزل صاحبها من العلم فوق منزلته، ويرتَّب من الأدب في أعلى مرتبته، وقديما قيل: "يكفيك من الآداب أن تروي الشَّاهد والمثَل، وقد جمعتُ في كتابي هذا ما يصلُّ الخواطر الصَّديَّة، ويُجدُّ القرائح الكالَّة، ويبعثُ الإفهام اللَّغِيَّة، ويقود القلوب الجامحة" (مجد الملك، ج، 1993، 2).

خاتمة: وعليه، فإنَّ مضمون كتاب "المستطرف في كلِّ فنٍّ مستطرف" هو عبارة عن برنامج إصلاحي تحضيري للمجتمع الإسلامي، بدعوته إلى العودة إلى الله، وكتابه العزيز وسنَّة رسوله صَلَّى الله عليه

وسلم، واتباع خُطى السلف الصالح؛ إذ لا تحضر بدون تفاعل بين الحاكم والرعية، في إطار تشريعي واضح يحفظ التناصف والهيبة لكلا الطرفين.

الكتاب دليل على نوع التأليف في العصر المملوكي، والموسوعية التي اتسم بها المؤلفون وقتها. اهتمام المؤلف بسير الماضين، حكمة، ومثلاً، وأقوالاً.

الاهتمام بالفصاحة وقضايا اللغة العربية، وتنقيتها مما علق بها.

التعليقات:

يعقوب: الوزير الكبير الزاهد أبو يعقوب بن داود بن طهمان الفارسي الكاتب كان والده كاتباً للأمير نصر بن سيار متولّي خراسان، فلما خرج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بعد مصرع أبيه زيد كان داود ينصح يحيى سرّاً، ثم قُتل يحيى، وجال يعقوب بن داود في البلاد، وصار أخوه علي بن داود كاتباً لإبراهيم بن عبد الله الثائربالبصرة، فلما قُتل إبراهيم اختفوا مدّة، ثم ظفر المنصور بهما، فسجنهما، ثم استُخلف المهدي عليهما...فعظّمه المهدي، وملاً عينه، واختصّ به، ولم يزل في ارتقاء، وتقدّم حتّى وزر له، وفوّض إليه المهدي أزمة الأمور، وفي 166هـ/783م فيها قبض المهدي عليه؛ لكونه أعطاه هاشمياً من ولد فاطمة ليقتله، فاصطنعه، وهرّب به، فظفر به الأعوان، وكان يعقوب شيعياً يميل إلى الزيدية، ويقرّبهم (ابن العماد الحنبلي، ش، ج، 1989، ص 261).

المصادر والمراجع:

1. الأبيشي، شهاب الدّين محمّد بن أحمد الأبيشي 790هـ/850هـ)، (2009م)، المستطرف في كلّ فنّ مستطرف، القاهرة، مصر: دار الفجر للتراث.
2. البغدادي، إسماعيل باشا، (1995م)، هديّة العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنّفين، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، م 2.
3. البيهقي، إبراهيم بن محمّد، (دط)، المحاسن والمساوئ، تحقيق، محمّد، أبو الفضل إبراهيم، مصر، القاهرة، دار المعارف، ج 1.
4. جعفر بن شمس الخلافة مجد الملك، (1414هـ/1993م)، كتاب الآداب، عنيّ بتصحيحه وضبط ألفاظه وتفسيرها والدنا، محمّد أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، ط 2.
5. الجاحظ، (2004م)، رسائل الجاحظ (الرسائل السياسيّة)، قدّم لها وبوّها الدكتور علي بوملحم، لبنان، بيروت، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنّشر.
6. الجاحظ، المحاسن والأضداد، قدّم له وبوّه وشرحه الدكتور، عليّ بوملحم، (2008م)، لبنان، بيروت، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنّشر.
7. الجاحظ، (1430هـ/2009م)، البيان والتبيين، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنّشر، لبنان، الطبعة الأولى.
8. الدّينوري، أبوحنيفة، أحمد بن داود ت 282هـ) (1379هـ/1959م)، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة الدكتور جمال الدّين الشّيتال، الإقليم الجنوبي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
9. الرّمخشري، العلامة الأديب أبو القاسم جار الله محمّد بن عمر ت 538هـ)، (1140هـ/1987م)، المُستقصى في أمثال العرب، لبنان، بيروت، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط 2.
10. السيوطي، الإمام جلال الدّين، (1426هـ/2005م)، تاريخ الخلفاء، خرّجاً أحاديثاً محدثين بشعبان بن أحمد، الطبعة الأولى، مصر، القاهرة، دار البيان الحديثة.

11. العسكري، أبوهلال الحسن العسكري بن عبد الله بن سهل، (1408هـ/1988م)، كتاب جمهرة الأمثال، ضبطه وكتبه هوامشه ونسقه الدكتور أحمد عبد السلام، خرّج أحاديثه أبوهاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.
12. عمر فروخ، (أكتوبر 1989م)، تاريخ الأدب العربي-من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني في المشرق 400هـ-93م/1009هـ-1517م، ط5، لبنان، بيروت، دار العلم للملايين، ج3.
13. بن قتيبة، (1999م)، الإمامة والسياسة، تحقيق الأستاذ علي شيري، لبنان، بيروت، دار الأضواء للطباعة والنشر، ج1.
14. الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ): (11420هـ/1999م)، الأمثال والحكم، تحقيق ودراسة المستشار الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، م ع س، الرياض، دار الوطن للنشر، ط1.
15. المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين بن علي (ت346هـ)، (دط)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم الدكتور يوسف البقاعي، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
16. بن العماد الحنبلي، الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الدمشقي 1032هـ-1089هـ، (1410هـ/1989م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، حقّقه وعلّق عليه: محمود الأرناؤوط، ط1، دمشق، دار ابن كثير، م2.
17. بن كثير الدمشقي، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفدا (ت701هـ/774م)، (دط)، البداية والنهاية، راجعه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: محمد تامر، شريف محمد، محمد عبد العظيم، محمد سعيد محمد، الجزائر، دار الوحي للنشر والطبع والتوزيع.
18. كرامش: اللغة والثقافة، (2010م)، تر: د. أحمد الشّيعي، مراجعة: عبد الودود العمراني، منشورات: وزارة الثقافة والفنون والتراث، الطبعة الأولى، قطر، إدارة البحوث والدراسات الثقافية.
19. النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب 677هـ/733هـ)، (دط)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مصر، القاهرة، مطابع كوتساتسوماس وشركاه.